مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة - تصدر سنويًا

العدد
السادس عشر
1999

1429 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1999 إفرنجي

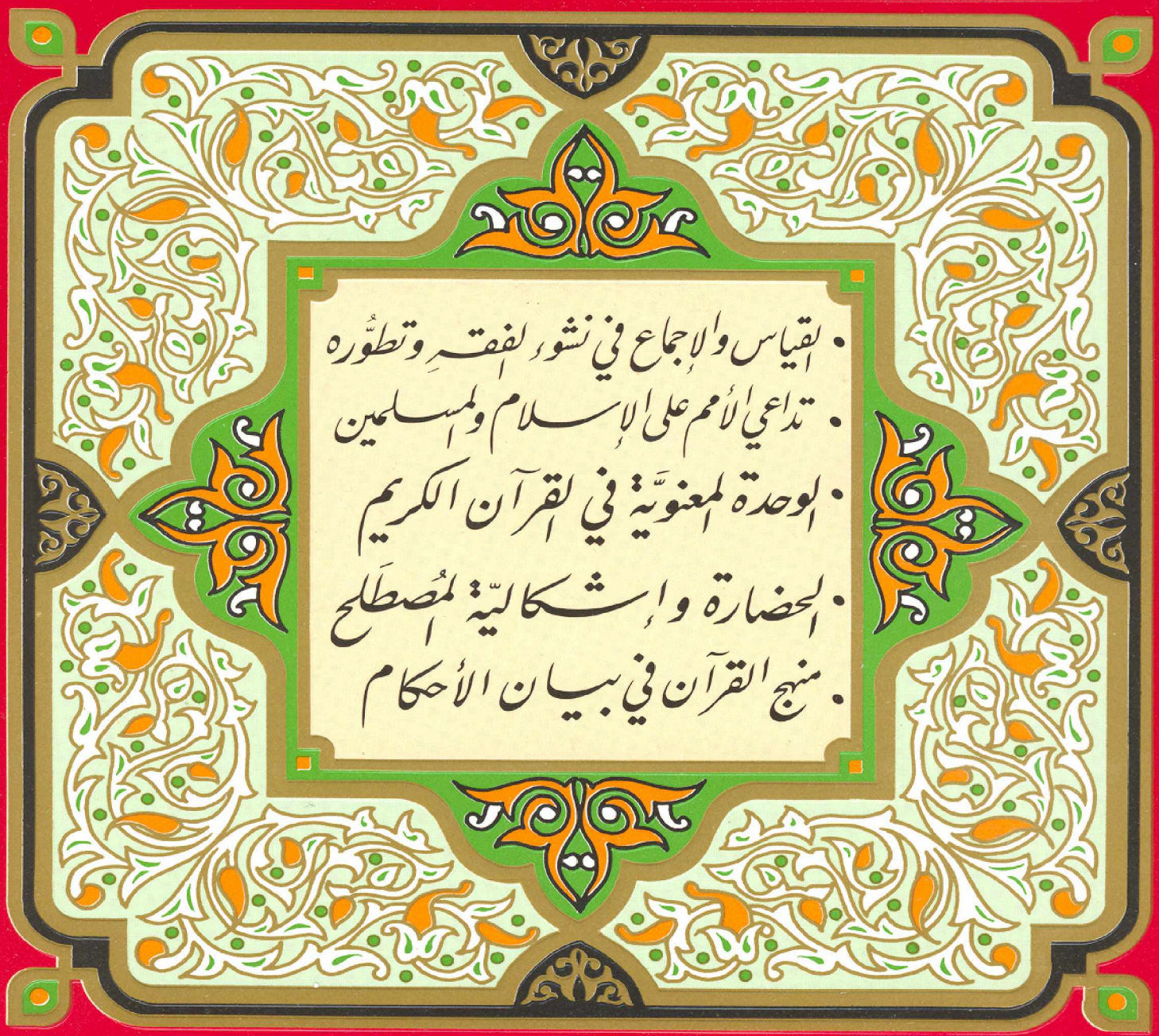

الإعجاز القرآني
في تفسير ابن جزي

د. حسن مسعود الطّوير
كلّيّة الدّعوة الإسلاميّة

عاش ابن جزي في عصر نضجت فيه البلاغة، ووصلت الدراسات المتعلقة بها قمتها، ولقد تأثر بذلك في تفسيره الذي سماه «التسهيل لعلوم التنزيل» حيث ضمنه مقدمتين اشتملت كل واحدة منهما على أبواب متعددة تحدث في الأولى عن علوم القرآن وإعجازه، فاشتمل الباب العاشر على تعريفات للفصاحة والبلاغة وشروطهما، وأشار بعد ذلك إلى أنه وجد في القرآن الكريم اثنين وعشرين نوعاً من البديع، وأنه نبه على كل نوع في المواضع التي وقع فيها من القرآن الكريم، ثم سرد هذه الأنواع[1].

(*) هو محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي (أبو القاسم) فقيه من علماء الأصول واللغة، من أشهر مصنفاته تفسير القرآن المسمى (التسهيل لعلوم التنزيل)، توفي شهيداً بوقعة طريف عام 741هـ ـ شجرة النور ص213.

(1) انظر (التسهيل لعلوم التنزيل) ـ دار الكتاب العربي - بيروت ـ (1403/ 1983) ـ ص880.

وأفرد ابن جزي مقدمة ثانية خصصها لتفسير معاني اللغات، ذكر فيها الكلمات التي يكثر ورودها في القرآن مرتبة على حروف المعجم، وقام بتفسيرها كلمة كلمة. يقول في المقدمة: «فمن لم يجد تفسير كلمة في موضعها من القرآن فلينظر في هذا الباب»[2].

ويلاحظ الباحث أن ابن جزي أبدى اهتماماً بالغاً بفن البديع، ولا غرابة في ذلك فقد ظهر في عصر نضجت فيه البلاغة ووضعت لفروعها المسميات الثابتة، كما يلاحظ أنه لم يفرق بين البيان والبديع، إذ جعل القسم الأول من البديع هو المجاز، وقسمه إلى اثني عشر نوعاً، وكذلك عد الكناية نوعاً من البديع، وهذا أمر لافت للنظر، فابن جزي عاش في القرن الثامن، وقد سبقه السكاكي في القرن السابع فقسم البلاغة إلى معانٍ وبيان وبديع[3]، وجاء بعده بدر الدين بن مالك ت686هـ، فسمى كلاً من المحسنات اللفظية والمعنوية بعلم البديع في كتابه المصباح[4]، وقد قام بتلخيصه بدر الدين بن محمد بن النحوية ت728هـ في مصنف سماه «ضوء المصباح»، وظل هذا الكتاب مسيطراً على قاعات الدرس في الغرب الإسلامي مدة طويلة إلى أن اتجهت الأنظار إلى كتاب التلخيص للقزويني ت 739هـ[5].

وعلى الرغم من ذلك كله فإن ابن جزي لم يأخذ بذلك عند تقسيمه لفروع البلاغة، وإنما جعلها تحت اسم أدوات البيان وصناعة البديع، وقد مضى ابن جزي في هذا الاتجاه على سنن بعض البلاغيين المغاربة كأبي محمد السجلماسي[6]، وابن البناء المراكشي[7]، وغيرهما الذين يسمون علم البلاغة

---

(2) م. ن ص882.

(3) مفتاح العلوم ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ص200.

(4) انظر المصباح ص180.

(5) مناهج بلاغية ـ أحمد مطلوب ـ وكالة المطبوعات ـ الكويت ـ ط أولى ـ 1973 ص 281 ـ 282.

(6) أبو محمد القاسم بن محمد بن عبد العزيز الأنصاري السجلماسي من مصنفاته: المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، لم تعرف سنة وفاته، ويذكر أنه كان حياً عام 704هـ تاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان ـ الملحق 2/ 16.

(7) أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي من مصنفاته: الروض المريع في صناعة البديع ت721هـ. معجم المؤلفين 2/ 126.

بعلم البديع، ولا يراعون التقسيم الذي جاء به السكاكي ومن سار على منهجه من البلاغيين المشارقة.

ولقد كان لأستاذه ابن الزبير[8]، أثر في تفكيره، فاهتم بقضية التناسب بين الآيات والسور التي ألف فيها شيخه كتاباً سماه «البرهان في ترتيب سور وآيات القرآن»[9].

ويورد ابن جزي شواهد متعددة لذلك العمل، فيقول عند شرحه لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 21].

«لما قدم اختلاف الناس في الدين، وذكر ثلاث طوائف: المؤمنين والكافرين والمنافقين أتبع ذلك بدعوة الخلق إلى عبادة الله، وجاء بالدعوة عامة للجميع؛ لأن النبي ﷺ بعث لجميع الخلق»[10].

ويتعرض إلى ربط آية التحدي في سورة البقرة[11]، بما قبلها فيقول: «الآية إثبات لنبوة محمد ﷺ بإقامة الدليل على أن القرآن جاء من عند الله، فلما قدم إثبات الألوهية أعقبها بإثبات النبوة»[12] ويتمسك ابن جزي بالوحدة المعنوية بين آيات القرآن الكريم اقتداء بشيخه ابن الزبير، فيقول عند تعرضه لتفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: 51] «الإنذار عام لجميع الناس، وإنما خصص هنا بالذين يخافون؛ لأنه قد تقدم في الكلام ما يقتضي اليأس من إيمان غيرهم، فكأنه يقول: أنذر الخائفين لأنه ينفعهم الإنذار، وأعرض عمن تقدم ذكره من الذين لا يسمعون ولا يعقلون»[13] وعند تعرضه

---

(8) هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أخذ عنه أبو حيان لأندلسي وابن جزي الكلبي وغيرهما، توفي عام (708هـ) ـ شجرة النور ص212.

(9) حققه الباحث محمد شعباني وطبع بالمغرب ـ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (1410/ 1990).

(10) التسهيل لعلوم التنزيل ص17.

(11) وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: 23].

(12) التسهيل ص18.

(13) التسهيل ص179.

لتفسير آية مصارف الزكاة[14] يطرح سؤالاً عن سبب ذكر مصارف الزكاة في تضاعيف ذكر المنافقين ويجيب عنه بقوله: «إنه حصر مصارف الزكاة في تلك الأصناف ليقطع طمع المنافقين فيها، فاتصلت هذه الآية في المعنى بالآية التي سبقتها وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: 58][15].

فابن جزي من القائلين بالوحدة المعنوية في القرآن الكريم، حيث يرى أن الآيات يتصل بعضها ببعض اتصالاً يظهر ترابطه المعنوي.

رأيه في إعجاز القرآن:

أفرد ابن جزي في مقدمة تفسيره باباً خاصاً للحديث عن إعجاز القرآن الكريم هو الباب الحادي عشر من مقدمته الأولى[16]، وقد حدد وجوه إعجاز القرآن في عشرة أوجه هي:

فصاحته التي امتاز بها عن كلام المخلوقين، فابن جزي يتفق مع القاضي عياض في أن أسلوب القرآن مخالف لكل نظم معهود في لسان العرب، حيث يقول القاضي عياض: «إن أسلوب القرآن مخالف لأساليب العرب ومناهج نظمها ونثرها»[17].

كما أن ابن جزي في هذه المسألة يسير على نهج القرطبي الذي يرى أن من وجوه إعجاز القرآن نظمه البديع المخالف لكل معهود في لسان العرب[18].

ويحاول الباحث عبد الكريم مشهداني تفسير وجهة نظر القرطبي التي قال بها ابن جزي من بعده فيقول: «ولا تحمل المخالفة التي يقول بها القرطبي إلا على ذلك التفاوت الكبير الذي سبق القرآن به بلاغة العرب سبقاً بلغ حد الإعجاز. ولا يمكن أن يكون معناه أن القرآن ليس نظماً عربياً»[19].

---

(14) وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: 60].

(15) التسهيل ص256.

(16) انظر التسهيل لعلوم التنزيل ص881.

(17) كتاب الشفا للتعريف بحقوق المصطفى ـ دار الفيحاء ـ عمّان ـ ط2 (1407/ 1986) 1/ 511.

(18) الجامع لأحكام القرآن ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ 1/ 73.

(19) الإعجاز بالنظم وأثره في الدراسات القرآنية ـ دار الحديث الحسنية ـ الرباط 1989 ـ ص363.

ويضيف ابن جزي وجهاً آخر وهو عجز المخلوقين عن الإتيان بمثله، والحقيقة أن هذا الوجه مضمن في الوجه الأول، فإيراده من باب الإطالة والتكرار الممل. ويبدي ابن جزي اهتماماً ملحوظاً بالوجوه التاريخية والغيبية فيذكر من وجوه إعجاز القرآن الأخبار الواردة فيه عن القرون الماضية، وما أخبر فيه عن الغيوب المستقبلة، وهو بهذا الرأي يتفق مع القاضي الباقلاني الذي يقول: «ومنها الإخبار عن الأمور التي تقدمت في أول الدنيا إلى وقت نزوله من أمي ما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها والقرون الخالية في دهرها»[20]. كما يتفق مع الخطابي والرماني والقرطبي[21]، وغيرهم من المفسرين والبلاغيين الذين يذهبون إلى أن من وجوه إعجاز القرآن الإخبار عن المغيبات في المستقبل التي لا يطلع عليها إلاّ بالوحي.

ويشير ابن جزي إلى وجه تشريعي من وجوه الإعجاز وهو ما تضمنه القرآن من الأحكام وبيان الحلال والحرام، وهذا الوجه سبقه ـ إليه القرطبي عند سرده لوجوه الإعجاز القرآني[22].

ومن وجوه الإعجاز عند ابن جزي كون القرآن الكريم محفوظاً عن الزيادة والنقصان، وقد أخذ ابن جزي هذا الوجه من قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، فقد تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظ معجزة الإسلام الخالدة.

وكان القاضي عياض قد أورد هذا الوجه وفسره بقوله: «وسائر معجزات الأنبياء انقضت بانقضاء أوقاتها فلم يبق إلا خبرها، والقرآن العزيز لأول نزوله إلى وقتنا حجته قاهرة ومعارضته ممتنعة»[23].

---

(20) إعجاز القرآن ـ تحق محمد عبد المنعم خفاجي ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ط1 ـ 1414/ 1991 ص85.

(21) انظر ذلك في بيان إعجاز القرآن للخطابي ص23، والنكت في إعجاز القرآن للرماني ص75، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 1/ 75.

(22) انظر الجامع لأحكام القرآن 1/ 75.

(23) الشفا 1/ 533.

ويذكر ابن جزي وجهاً آخر للإعجاز القرآني وهو تيسيره للحفظ فيقول: «إن ذلك معلوم بالمعاينة»[24]، وهذا الوجه مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: 17].

يقول الماوردي في أعلام النبوة «من إعجازه تيسيره على جميع الألسنة حتى حفظه الأعجمي الأبكم، ودار به لسان القبطي الألكن، ولا يحفظ غيره من الكتب كحفظه»[25].

والوجه الأخير عند ابن جزي كون القرآن لا يمله قارئه ولا سامعه، وهو يعني بذلك أن النفوس جبلت على معاداة المعاد، أما القرآن فلا يكره تكراره ولا يمل من إعادته، ولهذا وصفه الرسول الكريم بأنه: «لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه»[26].

وقد سبقه إلى طرح هذا الوجه القاضي عياض حيث قال: «إن الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وغيره من الكلام ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغه يمل منه مع الترديد»[27].

ويتبين من مجموع كلام ابن جزي في كتابه التسهيل أنه يقول بإعجاز القرآن من حيث المضمون ومن حيث الأسلوب، فمن حيث المضمون يذكر من وجوه إعجازه إخباره عن الماضي مع أمية المنزل عليه، وإخباره عن الغيوب المستقبلة، وتعريفه بالباري وذكر صفاته وأسمائه، وإقامة الحجج على الكفار بما ليس في مقدور البشر الإتيان به، وما فيه من الأحكام، وبيان الحلال والحرام ومصالح البشر، ومكارم الأخلاق، وما فيه من العلوم الإلهية والمعاني العجيبة التي ليس في طوق البشر مثلها، ومن حيث الأسلوب يذكر نواحي الفصاحة والبلاغة وغرابة الأسلوب والنظم العجيب المخالف لأساليب العرب، وقد أورد خصائص تتعلق بالمضمون والأسلوب معاً مثل عدم ملل القارىء والسامع منه، وتيسيره للحفظ.

---

(24) التسهيل لعلوم التنزيل ص881.

(25) أعلام النبوة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط1 ـ 1406/ 1986 ـ ص64.

(26) سنن الترمذي ـ كتاب فضائل القرآن ـ باب ما جاء في فضل القرآن 5/ 173.

(27) الشفا 1/ 535.

وقد أخذ ابن جزي هذه الوجوه من الباحثين قبله كالقاضي عياض والقرطبي وغيرهما، ولكنه يختلف مع ابن عطية الذي يحدد وجه الإعجاز بقوله: «والقول الذي عليه الجمهور والحذاق أن التحدي إنما وقع بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه»[28].

وينفي ابن عطيه الوجه الذي أورده ابن جزي وهو حديثه عن الأمم السابقة والغيوب المستقبلة. يقول ابن عطية: «وقال بعضهم من مثله في غيوبه وصدقه وقدمه... والرأي الأول أبين» فهو لا يرتضي هذه الوجوه من إعجاز القرآن، ويردها ويقصرها على نظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه.

وقد أورد ابن جزي رأى القائلين بأن الإعجاز كان بالصرفة[29]، ثم رده حيث يقول: «وقال قوم إنه كان في قدرتهم وصرفوا عنه، وهذا الرأي غير صحيح[30]، وقد اهتم ابن جزي بالإعجاز البياني، وأورد في تفسيره الأمثلة المتعددة للمعاني والبيان والبديع، وإن كان يؤخذ عليه أنه كثيراً ما ينقل هذه الشواهد من كتب التفسير ولا ينسبها لأصحابها، وهذا يعد من هنات تفسيره.

تفسيره لآيات التحدي والآيات التي تصف القرآن بالكمال:

كان الإعجاز قوة كامنة في القرآن الكريم، فأراد الله أن يظهرها حتى يسطع دليلها في عقول السامعين، فيؤمن المهتدون وتقوم الحجة على المعاندين، فسلك لها سبيل التحدي، وكانت عقول العرب موطئة للتحدي في البيان، فكانوا يتسابقون ويظهر كل منهم منظومه ومنثوره بين السامعين حتى أقاموا لذلك أسواقاً وحكَّموا بينهم فحول الشعراء، فكانوا يتدافعون بالتحدي المحدود على قدر طاقتهم البشرية، حتى تنزل القرآن ففاجأهم بقوته البيانية الخارقة التي انهزموا أمامها في أول محاولة هموا بها في تحدي هذه المعجزة الخالدة.

---

(28) المحرر الوجيز 1/ 38.

(29) وهي القول بأن العرب كان في مقدورهم الإتيان بمثل القرآن ولكن الله منعهم وصرفهم عن ذلك.

(30) التسهيل لعلوم التنزيل ص19.

ولسائل أن يقول: لماذا صرح القرآن بالتحدي مع عجز المخاطبين عن ذلك؟ إن لورود التحدي في القرآن حكمة بالغة؛ لأنه ميزان ينصب بين القدرة والعجز، ولا تستطيع أن تقول: هذا معجز إلا إذا تحديت الناس به فعجزوا عنه، يقول الباقلاني: «وإنما احتيج في باب القرآن إلى التحدي؛ لأن من الناس من لا يعرف كونه معجزاً. فإنه يعرف إعجازه أولاً بطريقه؛ لأن الكلام المعجز لا يتميز من غيره بحروفه وصورته، وإنما يحتاج إلى علم وطريق يتوصل به إلى معرفة كونه معجزاً، فإن كان لا يعرف بعضهم إعجازه فيجب أن يعرف هذا حتى يمكنه أن يستدل به»[31].

ويتعرض ابن جزي لتفسير آيات التحدي، فيقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: 23].

«الآية إثبات لنبوة محمد ﷺ بإقامة الدليل على أن القرآن جاء به من عند الله»، ويجيب عن سؤال مفاده لم قال: إن كنتم في ريب، ومعلوم أنهم كانوا في ريب وفي تكذيب؟

ويجيب أنه ذكر حرف إن إشارة إلى أن الريب بعيد عن العقلاء في مثل هذا الأمر الساطع البرهان، فلذلك وضع حرف التوقع والاحتمال في الأمر الواقع لبعد وقوع الريب وقبحه عند العقلاء[32].

ويبين الاختلاف الحاصل في عجز الخلق عن المعارضة فيقول: «وقد اختلف في عجز الخلق عنه على قولين: أحدهما أنه ليس في قدرتهم الإتيان بمثله، والآخر: أنه كان في قدرتهم وصرفوا عنه، ثم هو يرجح الرأي الأول بقوله: «والرأي الأول هو الصحيح»[33].

ويتفق ابن جزي في رأيه هذا مع شيخه ابن الزبير الغرناطي، فالمفسران

---

(31) إعجاز القرآن ـ الباقلاني ـ تحق محمد عبد المنعم خفاجي ـ دار الجيل ـ بيروت ط أولى ـ 1411هـ/ 1991م ـ ص285.

(32) التسهيل لعلوم التنزيل ص18.

(33) المصدر نفسه ص18.

يذهبان كما يذهب جميع المفسرين إلى أن آيات التحدي هدفها إثبات نبوة محمد ﷺ وصدق ما جاء به، فيقول ابن الزبير في تفسير آية التحدي السابقة: «إن المراد إراءتهم ما يرفع شكهم في نبوة محمد ﷺ، فكأنه قد قيل: إن شككتم في نبوته وتخصيصنا إياه بذلك فلتأتوا برجل منكم غيره يصدر عنه أو يأتي بسورة واحدة من نمط ما سمعتم من محمد ﷺ، فإذا عجزتم عن ذلك مع التمائل في الخلق والعلم بمقادير الكلام ـ ولا بد من عجزكم ـ فاتخذوا وقاية تنجيكم من النار. . .»[34].

ويتعرض ابن جزي لتفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82] فيرى أن هذه الآية فيها حض على التفكر في معانيه لتظهر أدلته وبراهينه فيقول: «اختلافاً أي تناقضاً كما في كلام البشر أو تفاوتاً في الفصاحة، لكن القرآن منزه عن ذلك فدل على أنه كلام الله، وإن عرضت لأحد شبهة وظن اختلافاً في شيء من القرآن فالواجب أن يتهم نظره ويسأل أهل العلم ويطالع تآليفهم حتى يعلم أن ذلك ليس باختلاف»[35].

وقد اقتبس ابن جزي ذلك من ابن عطية الذي يقول في تفسير هذه الآية: «هذا أمر بالنظر والاستدلال، ثم عرف تعالى بمواقع الحجة، أي لو كان من كلام البشر لدخله ما في كلام البشر من القصور، وظهر فيه التناقض والتنافي الذي لا يمكن جمعه، إذ هو موجود في كلام البشر والقرآن منزه عنه، إذ هو كلام المحيط بكل شيء علماً، فإن عرضت لأحد شبهة وظن اختلافاً في شيء من كتاب الله فالواجب أن يتهم نظره، ويسأل من هو أعلم منه»[36].

وقد اختلف المفسرون في ترتيب نزول آيات التحدي، وكان ذلك سبباً في اختلافهم في كيفية تدرج القرآن بالتحدي: أهو بالترقي من الأقل إلى الأكثر، أم

---

(34) ملاك التأويل ـ ابن الزبير الغرناطي ـ تحق سعيد الفلاح ـ دار الغرب الإسلامي بيروت ـ ط أولى ـ 1403/ 1983 ـ 1/ 183 ـ 184.

(35) التسهيل لعلوم التنزيل ص127.

(36) المحرر الوجيز 4/ 188.

بالتدني من الأكثر إلى الأقل، فذهب ابن عطية والمبرد إلى أن التحدي بسورة وقع قبل التحدي بعشر سور، أي أن آية سورة يونس[37] وفيها التحدي بسورة واحدة قد نزلت قبل آية هود[38]، التي تحداهم فيها بعشر سور مفتريات، وذكروا في تسويغ ذلك أنه تحداهم بسورة من مثله في البلاغة والاشتمال على الغيب والأحكام، فلما عجزوا تحداهم بعشر سور مثله في النظم[39].

وذهب آخرون منهم الزمخشري وابن كثير وأبو حيان الأندلسي إلى أن آية هود والتحدي بعشر سور هو الذي نزل أولاً، يقول الزمخشري في كشافه: «تحداهم أولاً بعشر سور ثم بسورة واحدة، كما يقول المخاير في الخط لصاحبه اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب، فإذا تبين له العجز عن مثل خطه قال: قد اقتصرت منك على سطر واحد»[40].

ويندرج رأي ابن جزي في ترتيب نزول آيات التحدي في سلك الزمخشري وأبي حيان، ويحدد رأيه هذا وهو يفسر قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: 13] فيقول: «تحداهم أولاً بعشر سور، فلما بان عجزهم تحداهم بسورة واحدة فقال: «فأتوا بسورة من مثله» والمماثلة المطلوبة في فصاحته وعلومه»[41].

ويستفاد من قول ابن جزي هذا أمران:

الأول: أنه يرى أن التحدي بعشر سور هو النازل أولاً، فلما عجزوا تحداهم بسورة واحدة، أي أن سورة هود نزلت قبل سورة يونس، وهو بذلك يوافق رأي الجمهور، الذي يعبر عنه السيوطي في الإتقان[42].

---

(37) وهي قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: 38].

(38) وهي قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: 13].

(39) بينات المعجزة الخالدة ـ حسن ضياء الدين عتر ـ دار النصر ـ سوريا ـ ط1 ـ 1395/ 1975 ـ ص158.

(40) الكشاف ـ الزمخشري ـ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ 2/ 261.

(41) التسهيل لعلوم التنزيل ص289.

(42) انظر الإتقان في علوم القرآن ـ جلال الدين السيوطي ـ مطبعة المشهد الحسيني ـ القاهرة ـ ط أولى ـ 1387هـ/ 1967م ـ 4/ 4.

الثاني: أن ابن جزي يوضح أن المماثلة المطلوبة في فصاحته وعلومه، وهو بذلك يخالف ابن عطية الذي يرى أن المماثلة لا تكون إلا في النظم والفصاحة فقط[43]. ويسخِّر ابن جزي سبب نزول الآية لإثبات إعجاز القرآن، فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: 103] يبين أنه كان بمكة غلام أعجمي اسمه يعيش، وقيل كانا غلامين اسم أحدهما جبر والآخر يسار، فكان النبي ﷺ يجلس إليهما ويدعوهما إلى الإسلام فقالت قريش هذان يعلمان محمداً «وهذا رد عليهم فإن الشخص الذي أشاروا إليه أنه يعلمه أعجمي اللسان، وهذا القرآن عربي في غاية الفصاحة فلا يمكن أن يأتي به أعجمي»[44].

وقد سبقه إلى هذا الرأي القاضي عياض الذي يرد قول المشركين بقوله: «قد كان سلمان أو بلعام أو يعيش أو جبر أو يسار على اختلافهم في اسمه بين أظهرهم يكلمونه مدى أعمارهم، فهل حكي عن واحد منهم شيء ما كان يجيء به محمد ﷺ، وهل عرف واحد منهم بمعرفة شيء من ذلك، وما منع العدو حينئذ على كثرة عدده ودؤوب طلبه وقوة حسده أن يجلس إلى هذا فيأخذ عنه ما يعارض به»[45].

ويتعرض ابن جزي إلى تفسير الآية التي سدت باب التحدي أمام المعارضين وهي قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ﴾ [الإسراء: 88] فيقول: «عجز الخلق عن الإتيان بمثله لما تضمنه من العلوم الإلهية والبراهين الواضحة والمعاني العجيبة التي لم يكن الناس يعلمونها ولا يصلون إليها، ثم جاءت فيه على الكمال، وقال أكثر الناس إنهم عجزوا عنه لفصاحته وحسن نظمه، ووجوه إعجازه كثيرة»[46].

ويوضح ابن عرفة ت 803هـ رأي ابن جزي هذا بقوله: «إن الجن عهد

---

(43) انظر المحرر الوجيز 1/ 38.

(44) التسهيل لعلوم التنزيل ص366.

(45) الشفا 1/ 706.

(46) التسهيل لعلوم التنزيل ص383.

منهم على ما يزعمون الاطلاع على بعض المغيبات، والقرآن يشتمل على الإخبار بالغيب، فلو اجتمعت الجنّ الذين يخبرون ببعض الغيوب والإنس الفصحاء ليعبروا عن معانيه بألسنتهم لما أتوا بمثله بوجه»[47].

ويتضح مما سبق أن ابن جزي يوسع دائرة وجوه الإعجاز، فلا يقصره على حسن النظم والفصاحة كابن عطية، بل يتعدى إلى وجوه أخرى بلاغية وغيبية وتشريعية وروحية مما يتناسب مع دعوة القرآن العالمية، وذلك يدل على أن مفسري الغرب الإسلامي يقدرون القيمة العلمية لتعدد وجوه الإعجاز، وفي ذلك دليل على أنه نابع من القوة الإلهية الكامنة في القرآن وليس بأمر خارج عنه، ولذلك نرى أن ابن جزي عارض بشدة القول بالصرفة الذي قال به بعض أعلام المعتزلة، ودافع عن رأي الجمهور في استقلال الإعجاز القرآني، وكان له إشادات ببلاغة القرآن، فقد كان العنصر البلاغي من اللبنات التي بنى عليها ابن جزي تفسيره ولا سيما علم البديع.

ومن المآخذ على تفسيره وبخاصة في دراسته لإعجاز القرآن أنه أكثر النقل عن سابقيه، وكان في أغلب ذلك لا يحقق ولا يوثّق، فهو يعرض المسألة وينسبها إلى نفسه وهي في الحقيقة منقولة بنصها من أحد التفاسير السابقة عليه، وهو بهذا العمل يخالف أغلب العلماء المغاربة الذين تميز منهجهم بالتوثيق الدقيق، وعَزْوِ الآراء لأصحابها، كابن عطية، وابن الزبير الغرناطي، وأبي حيان الأندلسي، وابن عرفة الورغمي[48].

ويتجلى مذهب النقل والتلخيص في كتبه الأخرى مثل «القوانين الفقهية» فهو ناقل غير ناقد شغف بجمع الآراء وتلخيصها تمشياً مع الطبيعة العلمية في عصره التي تجنح إلى النقل والتلقين، وتعزف عن النقد والابتكار. وعلى الرغم من أن ابن جزي يصور في تفسيره شخصية الفقيه المتتبع للأحكام العملية من أدلتها التفصيلية فإنه كان لغوياً وجامعاً لعلوم القرآن وباحثاً في إعجازه.

---

(47) تفسير ابن عرفة، مخطوط، المكتبة الوطنية ـ تونس ـ رقم 10770 ق 9327.

(48) انظر تفصيل ذلك في كتاب «المنهج البلاغي لتفسير القرآن الكريم ـ حسن مسعود الطوير ـ دار الملتقى ـ بيروت ـ ط أولى ـ 1998م ص69 وما بعدها.